أبو لبابة حسين

مَوْقِفُ متصوّفة إفريقية وزهّادها من الاحتلال العُبيدي

دار اللواء للطّباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

دار اللواء للنشر والتوزيع – الرياض – شارع الملك فيصل : هاتف ٢٨٠٨٤ ص.ب ٢٨٥٦

موقف متصوفة افريقية وزهادها
من الاحتلال العبيدي

مقدمة

موقف متصوفة أفريقية وزهادها من الاحتلال العُبيْديّ

ما يزال الكشف عن تاريخ افريقية في القرون الأولى للهجرة، من المعضلات العسيرة الحل لفقدان المراجع الأمهات. ومن هنا لجأ المؤرخون إلى كتب الطبقات وكتب الرحلات وكتب الفقه ومسائل الخلاف ... ليستخلصوا منها تاريخاً يقرب إلى الصحة.

وإن تتبع خطوات المتصوفة وضبط مواقفهم ازاء الغزو الشيعي الذي لفّ البلاد ما بين ٢٩٧ - ٤٣٩ [١] يضعنا أمام مشكل أعوص من كشف التاريخ عموماً، إذ هذا الموقف يمثل جزئية في جسم التاريخ العام، إلا أننا متى عرفنا ان أحداث تاريخ افريقية كانت تجري بإرادة فقهائها وعلمائها وهم الجديرون

(١) منذ دخول عبيدالله المهدي ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م إلى أن تحول المعز بن باديس عن الشيعة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م.

بوضع بصماتهم على أحداث التاريخ بـل على توجيهه الوجهة التي ترضي ضمائرهم وأصولهم ، إذا عرفنا ذلك وعرفنا ان هؤلاء العلماء – رؤوس افريقية – لم يكونوا من الأصوليين الانتهازيين، وإنما هم من الصلحاء الزهاد أصحاب المبادىء السنية الثابتة . متى عرفنا ذلك تيقنّا إن ما يصلح من المصادر لإلقاء بعض الأضواء على تلـــك الحقبة من الزمن ، يكون صالحاً لاستخلاص مواقف هؤلاء الزهاد والمتصوفة من الاحتلال الشيعي .

ومن هنا فقد عدت إلى رياض النفوس للمالكي ، وإلى طبقات أبي العرب وإلى معالم الإيمان والديباج المذهب لابن فرجون .

والذي ألاحظه هو أن الديباج المذهب لا يفيدنا في مجـال بحثنا، نعم هو يضم قائمة طويلة فيأسماء زهّاد وعلماء افريقية، إلا أنها لا تزيد معلوماتها عن سرد نسبهم وذكر علمهم وفضلهم .

والذي اعتمدته بالدرجة الأولى هو معالم الايمان لِما طُعِّمَت به أخباره من معلومات الرياض للمالكي ، والطبقات لأبي العرب وطبقات التجيبي وكتاب العواني ، ومـــا تعلّمه ابن ناجي عن شيوخه،فهو يُمثّل مجموعة كتب متكاملة ومفيدة بالنسبة لموضوعنا الذي هو موقف متصوفة افريقية وزهادها من الشيعة ؟

وقد أشرت فيصدر الموضوع إلىصلة التصوف بالسنّة، وهي صلة توادُد وتمازج على درب التوحيد والوفـاء للكتاب والسنّة ومقاومة البدع . وذكرت كيف أن التصوف المغربي قـاوم

التشيّع – رغم ان الزهد في المشرق إنما تطوّر إلى تصوّف على أيدي الزهّاد الفرس الذين يمثلون عصب التشيّع ودمه الفوّار – لأن التصوف المغربي نشأ في ظروف مغربية خاصة وأملتْه ضلالاتٌ وانحرافات، كان التصوف البلسمَ الشافي لها، قياماً على مصالح الشعب المغربي الذي تحول إلى شعب عربيّ اللسان والمشاعر، مسلم القلب والايمان بعد ان عانت البلاد من آلام وضعه عبر سلسلة من الانتفاضات المروّعة العمياء غير الناضجة .

ومن هناك استخلصت أربع خصائص كبرى لمتصوفة المغرب وهي :

١ – ان حياة الصوفية شديدة الالتصاق بالحياة العامة .

٢ – المتصوفة المغاربة [١] سنّيون متمسكون بالمالكية متنكّبون عن كل ما يمكن أن يؤدي إليه التأويل من مزالق .

٣ – هؤلاء المتصوفة يمثلون قادة النضال ضد الشيعة، وقد انتهجوا سبيل التصوف بروح إسلامية بحتة لا أثر للرهبنة فيها .

٤ – فلسفة هؤلاء المتصوفة تتمثل في الحفاظ على سلامة العقيدة .

فصوفية افريقية في أواخر القرن الثالث وطوال القرن

---

(١) من الأحناف متصوفة وزهاد، ولكن نظراً لعيشهم في احضان السلطان الأغلبي – وهو ما يأخذه عليهم المالكية وينكرونه عليهم فيعنفون بهم – مالوا إلى الشيعة نكاية في السنيين عند الاحتلال الشيعي .

الرابع والثلث الأول من القرن الخامس، هم صوفية الوضوح والبساطة فلا مقامات ولا أحوال تحـدّد لهم طريق المعرفة ولا ظاهر ولا باطن للعلم ولا كشف ولا تهويم، وإنما هو طهارة القلب وكبح جموح النفس الامارة والاخلاص كله، وكما قال أبو عبيدالله محمد بن اسماعيل المغربي المتوفى سنة ٣٠٠ هـ حين سئل عن معنى الزهـــد : « هو تجريد القلب ونزع النفس بالانصراف سراً وجهراً » [١] .

ولكي يستقيم لنا فهم ثورة زهّاد افريقية، وجب فهم الأسباب الداعية لذلك ، ولذلك عَدّدتُ بعض تلك الأسباب مستخلصاً لها من أفواه المتصوفة وأعمال الشيعة ، من التسلط على الحكم بقوة السلاح إلى الاستيلاء على أموال الأحبـاس والحصون ، وافتكاك أسلحتها إلى قصر الافتاء على الشيعة ، إلى زيادة « حيّ على خير العمل » في الأذان ومنع صلاة التراويح ، إلى اعتبار امامهم نبيّاً والطعن على الصحابة .

إثرَ ذلك انتهيت إلى ذلـــك طرق المقاومة وهي صُلبُ موضوعنا ، فتوصلت إلى أن المقاومة اتخـذت أشكالاً متعددة حسب الظروف وحسب شخصية المقاوم ، إلا أن كراهية بني عبيد تُجَلّلُ جميع هـــذه الألوان من المقاومة والدعاء عليهم يكاد يكون من الطقوس المقدسة عندهم .

---

(١) معالم الايمان ٢ : ١٩٥ .

فكانت هـذه المقاومة سلبية تتمثل في الإنكار الصامت ، وفي مقاطعة القضاة والعمال الشيعيين ورفض دفع المال أحياناً ، وفي الهروب من وجه الشيعة تماماً أحياناً أخرى، فيجدون لقاء ذلك التعذيبَ والهوان والاعدام .

فهذا ابو جعفر المـُعَافِري يُعْدَمُ لبُغْضِهِ للشيعة ، وذلك ابو القاسم الطـّرزي يُجْلدُ بالسياط لنفس السبب وهــذا اللباد يسجنونه ويمنعونه الفتوى ويعزلونه عن طلاّبه لمعاداته للشيعة، وهـذا ابن الصواف يتحول عن الخروج عليهم لكبر سنه ويقوم بتوعية طلبته وأصحابه سرّاً .

ونظراً إلى أن للشيعة فلسفتهم وعقيدتهم وتشريعهم الخاص بهـم ، فإنهم دفعوا بفقهائهم ومتكلميهم لِلسنيين، فكانت لهؤلاء مقاومة جدلية تعد من أروع المساجلات العقائدية ، رفع لواءهـا ابو اسحاق بن البرذون وسعيد بن الحداد وابن التبّان كل في عصره يدفعون الشّبهاتِ وينقضون ما يحيكه العبيديون من الباطل متخذين القرآن قاعدة والعربية والتاريخ والسيرة وسائل يستخدمونها بدقة نظر وذكاء عجيبَيْنِ .

وقريب من هــذا مقاطعة المـُمَالِئِينَ للسلطان فقد جعلوا منهم ضُحـَكةً منبوذين كما وقع لأبي القاسم خلف ابن البراذعي وابن اسحاق المعافري .

والنوع الرابع من المقاومة هي المقاومة المسلحة ، وقـــد

انطلقت شرارتها منذ ان وطئت أقدام الشيعة البلاد فجَبَلَةُ بن حمودة الزاهد حمل السلاح سنة ٢٩٧ وأبو القاسم الحسن بن مُفرح سنة ٣٠٩ خرج في جماعـة على عبيدالله ، وظل الحقد والغضب يتفجر في شكل ثورات متتالية في غير نظام، إلى أن كانت الثورة الكبرى حيث تمت التوعية العامة وتهيئة الجماهير للقتال سيما وقد لمعت بوارق النصر لِمَا شاهدوا من ثورة صاحب الحمار فانضمت إليها جحافلهم يدفعها أبطال الصوفية من أمثال الممسي وربيع القطّان والسبّائي وغيرهم ، ويسدل ستار المعركة على هزيمة الصوفية والعلماء ، وفقد المزيد من الضحايا الشهداء إلا أن ذيولاً جديدة ألهبت المشاعر لتفرض على الحكام الصنهاجيين بعد ذلك التحول إلى المالكية تدريجياً ليطلق الشعب أيديـه في الشيعة تقتيلاً وتحريقاً وتتوّجُ هذه المأساة بالغزو الأعرابي ليحل الخراب والدمار ، وتطوى صفحة العلم والنظام والحفاظ على مصالح البلاد والعباد دهراً لتبزغ شمسها من جديد سنة الأخماس سنة ٥٥٥ هـ على أيدي الموحدين .

صلة التصوّف بالسنّة

إن الصلة بين التصوّف والمذهب السني واضحة لا غبار عليها، وقد تناولها بالبحث العديد من الدارسين وهي صلة تمازج في المبادىء والمفاهيم تتمثل في التزام الكتاب والسنّة ومقاومة البدع وتركيز التوحيد[1].

لكن هل يتعارض التصوّف مع التشيّع ؟

ان الذي دعانا إلى هذا التساؤل هو مقاومة صوفية المغرب للمذهب الشيعي، وكأنّ التصوف يتنافى مع التشيع في حين نجد في بلاد المشرق أن الزهد إنما تطور إلى تصوف في خراسان والبصرة اللتين امتلأتا بالزهاد الفرس[2] وهم لحمَة التشيّع وسداه.

وإذا ما عرفنا ان للشيعة طرقاً صوفية عتيدة كالبكتاشية[3]

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٠ .
(٢) » » » » ص ٣٣٩ .
(٣) تقابلها النقشبندية السنية .

وان وشائج قربى متينة تصل بين الشيعة وصوفية المشرق الإسلامي كرّس لهـا كامل مصطفى الشيبي كتاباً كاملاً لنفض الغبار عنها وإجلالها ، إذا عرفنا ذلك فـلا نعجب ولا نعتبر مقاومـة صوفية المغرب العربي للشيعة من باب الشذوذ إذ أن طبيعة هذا التصوف تتنافى تماماً مـع المذهب الشيعي كما سنبين ذلك بعد حين .

الظروف التي نشأ فيها التصوّف المغربي :

ما أن تمّ الفتح الحقيقي على يد حسان بن النعمان حتى أخذت المصالح والاطماع تتطاحن في المغرب العربي ، واستطاعت بعض الارستقراطيات أن تحقق انتصاراً فتمسك بدفّة الحكم وتتجبر ، إلا أن ذلك كان يقاوم بثورات لن يهدأ لها ثوار من البربر الذين يبحثون عن توازنهم ويتعطشون للفوز بما يستحقونه من المساهمة في قيادة البلاد .

إلا أن بعض تلك الثورات كان ينقصها الوعي والنضج لعدم التعمق في فهم الإسلام ، وإلا فكيف نعلل انسياق كتامة وراء أبي عبيد الله الشيعي رغم مـا كان ظاهراً من مخالفة أساليبه في السياسة والحكم لقواعد الإسلام (١) .

إلا أن هذه الصورة الحالكة لا تدعونا إلى اليأس ، فقد كان

(١) رياض النفوس – مقدمة حسين مؤنس ص ٨ – ٩ .

هناك تيار آخر إلتزم الهدى « وتثقف ثقافة إسلامية خالصة تعتمد التوحيد والكتاب والسنّة »[1] استطاع أن يستقطب حواليه جموعاً شعبية هائلة تكون السواعد الحامية للسنّة على المذهب المالكي الذي انتشر وتحددت معالمه في هذه البيئة المضطربة ثورة واطماعاً وأحقاداً .

وان الموقف المجيد الذي وقفه فقهاء المالكية[2] من الحكام دفاعاً عن مصالح الجماهير وتحقيقاً للمبادىء الإسلامية ، جعل البربر يحسّون ان المذهب المالكي جزء من كيانهم .

وقد حوّل هذا الموقف الكثير من الفقهاء إلى أولياء صالحين يُلاقون العنت في سبيل الحفاظ على صفاء العقيدة، وبذلك – كما يقول حسين مؤنس – : « نستطيع أن نفسّر تفاني أهل المغرب في سبيل الصالحين وكبار الفقهاء لأن الولاية ارتبطت في أذهانهم بمعنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من الحكام الأجانب ، ومن هنا نضع أيدينا على عصب ثانٍ[3] من أعصاب التاريخ المغربي الإسلامي عصب الايمان في الزهاد والأولياء الذي ما زال ينبض

(١) رياض النفوس ، مقدمة حسين مؤنس ص ٩ .

(٢) كان مالك يستحسن أن يظل الفقيه بعيداً عن السلطان وأصحابه (مقدمة رياض النفوس لمؤنس ص ١٣) .

(٣) العصب الأول هو الرباطات .

حتى قامت بفضله الدول [١] المغربية الأصيلة [٢] » .

وفي هذا الإطار انتشر التصوف والزهد فكأن وجوه القوم من علمـــاء وفقهاء متصوفة يخلصون لله الدين فيدفعون عنه كل مستبد أثيم واضعين مالهم من هيبة وسلطان أدبي في خدمة قضيته مُضحّين بأرواحهم عند أول نداء .

طابع التصوّف المغربي :

ومن هنا نستطيع أن نحدّد بعض الصفات للمتصوفة المغاربة على ضوء مواقفهم من الأحداث التي مرّ بهـا المغرب العربي ، على اني قبل ذلك أريد أن أُبيّن اني لا أبغي وضع حدّ فاصل بـين مفهوم التصوف والزهد ، فالفترة التي تهمنا في موضوعنا تمتد من يوم أن انتصب الشيعة بالبلاد على يـد عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ إلى أن انطفأت شعلة وجودهم تماماً في المغرب الكبير عندما تمّ التحول النهائي إلى المالكية على يد المغربي باديس – الذي امتد حكمه من ٤٠٦ هـ حتى ٤٥٤ هـ – وهي فـترة مليئة بالأحداث لا تسمح لهؤلاء الزهـاد المتصوفة بالانطواء على أنفسهم للتحويم على مجالات نظرية تسبح في المقامات والأحوال وغيرها من المصطلحات الصوفية . ذلك ان هؤلاء الزهاد كانوا ملتصقين بالشعب يعيشون

---

(١) المرابطون والموحدون وكانوا من فقهاء المالكية .

(٢) مقدمة رياض النفوس ص ١٤ .

معه محنه ويوجهون خطاه نحو الخلاص .

كذلك لا استطيع الفصل بين العالم والمتصوف ، إذ العلم وخوف الله طابعهما جميعاً .

بعد هذا نستطيع أن نستخلص بعض صفاتهم التي منها :

أ — ان حياة المتصوفة شديدة الالتصاق بالحياة العامة، وهي ظاهرة قد تختلف عن التصوف المشرقي في بعض حالاته التي ركن فيها إلى الانزواء وفتح منافس له في تهويمات صوفية بعيداً عن الحياة العملية .

وهكذا فنحن إذا درسنا تاريخ هؤلاء الزهاد فإنما في الحقيقة ندرس تاريخ البلاد، إذ هم الأمة، وهم القادة، وهم شريان الوعي والحياة فيها .

فحياة ابن البرذون وجبلة بن حمودة والمعافري وأبي الحداد وأبي الفضل التميمي وربيع القطان وغيرهم عشرات تمثل حياة افريقية لحظة بلحظة وصمود افريقية وبطولتها .

ب — ان هؤلاء المتصوفة يمثلون المذهب المالكي تمسكاً بالنص وميلاً عن الرأي والتأويل وكل بدعة [1] حفظاً لسلامة الدين والوطن من الفتن المفسدة للدين والمتلفة للحرث والنسل .

وهكذا فلن يقف غير المالكيين في وجوه الشيعة من دعاة

---

(١) مقدمة الرياض لمؤنس ص ١٠ ومقدمة طبقات افريقية للمحققين ص ١٣

البدع، وسوف لن نجد منافحاً بالقلم واللسان ولا مجاهداً بالسيف والرمح إلا منهم، نعم ان الحداد قد نزع أخيراً إلى مذهب الشافعي من غير تقليد له – ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون من ألمع الوجوه وأحدّ الألسنة التي ذبّت عن سلامة الإسلام في افريقية وهي حالة تعدّ نادرة .

وقبل أن ننتقل إلى الخصيصة الثالثة من خصائص التصوف المغربي في القرنين ٤ – ٥ وآخر القرن الثالث هجري أريد أن أشير إلى ما قاله حسين مؤنس من أنك « تستطيع أن تتبع حركة الصوفية في المغرب من نشأتها الأولى على أسس مغربية خالصة ربما استطعنا مع البحث أن نربطها إلى أصول مسيحية مغربية عرفها المغرب قبل تحول أهله إلى الإسلام » . فهو وان كان يقرر ارتباط التصوف بطابع البلاد وبيئتها إلا أنه يجعل المسيحية أثراً في تشكيله، وهذا على ما اعتقد يتجافى مع طبيعة الإسلام التي بقدر ما تدعو إلى الطهر والسمو، فإنها تدعو إلى المساهمة في الحياة العامة، وان رجالاً يقيمون في الرباطات ويتولون توعية الشعب ويسهرون على سلامة المواطنين فيخففون من عوزهم بقضاء حاجتهم ويضربون أروع أمثلة الفداء فضلاً عن قيامهم بوأد أسرهم ليدحضون كل أثر للمسيحية في مسلكهم.

والتصوف المغربي إنما نشأ بدافع حب الإسلام والحفاظ على نقائه وحب رسول الإسلام وصحابته، وإذا كان الزهد المشرقي

خالياً من كل أثر للمسيحية حسبما يقرره مصطفى كامل الشيبي[١] فإننا نكون أكثر جزماً في ذلك بالنسبة للمغرب الكبير .

ج — والصفتان الأوليان تُسلمانا إلى معنى ثالث يعد نتيجة لهما ، وهو ان هـذا النسك والتصوف المغربي ليس هو من ألوان الرهبنة والانغلاق في المعابد ، وإنمـا هو مواجهة حية « بكل معطى جديد وتوجيه للقوى العاملة في البلاد نحو السؤدد والمجد» ونحو مجد المالكية السنية وقيام « بكل واجب عائلي واجتماعي وديني » . وقـد رأينا الإسلام يحارب الرهبنة ويجعل الزواج أساساً للزهد لأن فقر المسلمين الأولين لم يمنعهم من الزواج[٢] » . وهـذا عبيد الله بن العباس يقول : « لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح »[٣] .

ولا أجد أصدق من أبي عبدالله محمد بن نصر المتعبّد الأفريقي المعروف بالغنمي (ت ٣٠٩ ه) تعبيراً عن هذا المعنى فقد « كان فقيهاً زاهـداً عابداً حاذقاً مجاب الدعاء طويل الصمت كثير التهجّد »[٤] ، وكان يختم ثلاث ختم كل ليلة ويطأ زوجته ثلاث مرات ويغتسل ثلاث مرات، فكانت امرأته خلف نعشه تقول: « رحمك الله لقد كنت تُرضي ربك وتُسرُّ أهلك »[٥] .

---

(١) و(٢) و(٣) الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٤١ .

(٤) المعالم ٢ : ٢٠٢ .

(٥) المعالم ٢ : ٢٤٢ .

د ـ إن هؤلاء المتصوفة الذين عاشوا طيلة القرون الأولى للهجرة لا نجد لهم من فلسفة سوى الحفاظ على سلامة العقيدة ومقاومة البدع وتطبيق العدل ، وان أودى ذلك بحياتهم. فهذا ابن البرذون وابن هذيل لما استدعاهما عبيد الله إلى رقادة وجداه على سرير مُلكه جالساً ، وعن يمينه أبو عبدالله الشيعي وعن يساره أبوالعباس أخوه، فلما وقفا بين يديه، قال لهما أبو عبيدالله وأبو العباس : أشهد أن هذا رسول الله ، وأشار إلى عبيد الله . فقالا جميعاً بلفظ واحد : والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان أنه رسول الله ما قلنا أنه رسول الله، فأمر عبيدالله بذبحهما حينئذ جميعاً، وأمر بربطهما إلى أذناب البغال [1]. وقد طلب إليهما أن يتظاهرا أمام الجماهير بأنهما تراجعا ، فامتنعا وقالا : « عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة » [2] .

بهذا الصمود وبهذه الفلسفة الفدائية الواضحة حافظوا على سلامة الدين وهيبته في عيون الشعب والسلطة على حدّ سواء .

مُروق الشيعة عن الدين :

وان أبسط جواب عن سبب قيام صوفية المغرب وزهاده

---

(١) المعالم ٢ : ١٧٨ .

(٢) المعالم ٢ : ١٧٩ .

وعلمائه في وجه الشيعة، هو مروق هؤلاء عن الدين وانحرافهم عن سمته، وأهم مظاهر هذا الانحراف :

١ — التسلط على الحكم بقوة السلاح مع التكبر والتجبر . يقول المالكي في حديثه عن العبيديين وقاضيهم « محمد بن عمران المروذي » : « كان المروذي هذا معتقداً لمذهب الشيعة معروفاً بذلك، فلما دخل الشيعي بادر إليه ودخل في دعوته ولزمه وولاه[1] قضاء افريقية فتصلب وتكبر وتجبر وكانت أيامه صعبة جداً »[2] .

ومن مظاهر هذا العسف ان عبيدالله المهدي أباح لقضاته أن يطلقوا أيديهم في العلماء قتلاً وضرباً وتنكيلاً، وكانت الوشاية كافية لأن تحرك في عبيدالله نزوعه إلى القتل، فقد قتل الحسن ابن مفرج وأبا عبيدالله السدري وصلبهما لاتهامهما بالتشيع[3] .

٢ — أخذُ أموال الأحباس والحصون وسلاح الحصون يقول المالكي : «فأخذ أموال الأحباس والحصون وأخذ سلاح الحصون

---

(١) مقدمة طبقات علماء افريقية لأبي العرب ص ١٧ (عن مخطوط دار الكتب رقم ٢١١٨ تاريخ ج ٢ ورقة ٣١ أب) .

(٢) وهي تولية تشبه تولية الامريكان لعميلهم ثيو في الفياتنام الجنوبي وتولية الروس لعميلهم أولبريخت في المانيا الشرقية، في العصر الحديث مع وجود الفارق .

(٣) المصدر السابق ص ١٢ .

التي على البحر »[1] ، وأمر أن تزال من الحصون والمساجد أسماء الذين بنوها ويكتب عليها المهدي[2] !

٣ – منعُ غير الشيعة من الافتاء . فقد أمر الفقهاء ألا يُفتوا ولا يكتبوا وثيقة إلا من شرّق منهم[3] (أي تشيّع) .

٤ – زيادة حي على خير العمل[4] في الآذان ومنع صلاة التراويح[5] ، قال المالكي : « وأول ما ولّي (المروذي) زاد في الآذان حي على خير العمل وترك الناس يصلون القيام سنة واحدة ثم منعهم وترك أكثر الناس الصلاة في المساجد »[6] .

ويا ويل من يُسقِط تلك الزيادة من المؤذنين من ذلك أن عروس المؤذّن (ت٣١٧ هـ) ، وكان يؤذن في مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون – قد شهد عليه بعض المشارقة أنه لم يقل في آذانه حي على خير العمل فقطع لسانه وعمل بين عينيه وطيف

---

(١) مقدمة طبقات علماء افريقية لأبي العرب ص ١٧ والمعالم ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٢) « ص ١٧

(٣) « ص ١٧ وهي نفس العبارات الواردة في المعالم ٢ : ١٩٩ .

(٤) وهي ظاهرة مؤسفة نجدها بعد ذلك عند الموحدين أثر تحطيم المرابطين .

(٥) بناء على ان عثمان حذفها .

(٦) بناء على ان عمر بن الخطاب أضافها وشرعها .

به القيروان ثم قتل بالمرضاخ [١] .

إلا أن هـذا القهر يجابهه المتصوفة بلون من الاصرار الذكي والحيطة اليقظة . فهذا ابو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ (ت ٣٥٩ هـ) الذي « كان من أهل العـلم والورع والعبادة والخشوع» [٢] ، فقد تفطن لما يدسه العبيديون من اخلاء المساجد فقال للمؤذنين : « أذنوا على السنـّة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا حي على خير العمل ... وأنتم معذورون خـيرٌ من خلال المساجد » [٣] .

٥ — جعْلهم من إمامهم نبيّاً ، وقد تقدم هذا صراحة [٤]. ونضيف إلى ذلك مـا رواه أبو بكر المالكي عن ربيع القطان (ت ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) الذي كان لسان افريقية في وقته في الزهد والرقائق [٥] فقد عوتب ربيع فيخروجه مع أبي زيد إلى حرب بني عبيد فقال : « وكيف لا أفعل وقد سمعت الكفر بأذني فمن ذلك اني حضرت اشهاداً وكان فيه جمعٌ كثيرٌ من أهـل السنـّة ومشارقة ، وكان بالقرب مني أبو قضاعة الداعي ، فأتى رجـلٌ مشرقي من أهـل المشرق ومن أعظم المشارقة . فقام إليه رجل

---

(١) المعالم ٣ : ٣

(٢) المعالم ٣ : ٩٣ .

(٣) « ٣ : ٣٦ .

(٤) انظر ص ٥ .

(٥) المعالم ٣ : ٩٥ .

مشرقي وقال : إلى ها هنا يا سيدي إلى جانب رسول الله ، يعني أبا قضاعة الداعي ويشير إليه ، فما أنكر أحد شيئاً من ذلك فكيف ينبغي أن أترك القيام عليه » [1] .

وفعلاً فقد قام وقام معه خيرةُ الجيل السُّنّي من المثقفين والقادرين على حمل السلاح، ولو أن لبني عبيد هذه الشنيعة وحدها لكانت كافية للقيام عليهم فضلاً عن سواها من الضلالات .

٦ – ومن اعمالهم أيضاً الطعن على الصحابة الأبرار ، فقد وجد بخط ربيع القطان الآنف الذكر قوله : « لما كان في رجب سنة إحدى وثلاثين قام الصبي المكوكب يقذف الصحابة ويطعن على النبي وعلقت رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت والدروب يعنون بها رؤوس الصحابة رضوان الله عليهم، فلما رأى ذلك ربيع لم يسعهُ التأخر عن الخروج عليهم [2] .

وان هذه الضلالات نجدها في خطبة لأحمد بن أبي الوليد – إمام جمعة بصبرة – حاضاً المسلمين على قتال الضالين : (اللهم ان هذا القرمطي الكافر الصنعاني المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله، جاحداً لنعمتك كافراً بربوبيتك، طاعناً على أنبيائك ورسلك، مكذّباً لمحمد نبيك وخيرتك من خلقك، ساباً لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين، سافكاً لدماء امته

(١) المعالم ٣ : ٣٧ – ٣٨ .
(٢) » ٣ : ٣٨ .

مُستهتكاً لمحارم أهل ملته افتراءً عليك واغتراراً بحكمك اللهم فالعنه لعناً وبيلا وأخزه خزياً طويلا وأغضب عليه بكرة وأصيلا وأصله جهنم وساءت مصيرا)[1] .

هذه بعض الضلالات التي دوّنها المؤرخون السنّيون ووصلتنا ، وهي تُحرّك السواكن وتنهض بالهمم للهبوب ضد الأعداء وتعكير صفوهم وطردهم من البلاد .

وأولى الناس بالذّب عن راية الإسلام وبقاء عقيدته الصوفية الواعون، وهم يمثلون ضمير الأمة الحي وقلبها النابض وعقلها المدبّر ، فكيف قاوموا الضلال والعدوان ؟

طرق المقاومة :

أول ما نلاحظه في هذه المقاومة هو أنها مرت بمراحل ثلاث:

أ – مرحلة السلبية تتمثل في مقاطعة الخصم .

ب – مرحلة الجدلية تتمثل في دحض حججه وإقامة الحجة عليه .

ج – مرحلة المقاومة المسلحة .

ونحن إذا قسّمناها بهذا الشكل فلا يعني أن حقبة زمنية معينة تحتلها السلبية فلا يوجد فيها جدلٌ ولا سلاحٌ أو مرحلة

(١) المعالم ٣ : ٣٩ – ٤٠ .

يحكمها السلاحُ فيخبو فيها صوت الجدل والسلبية . وإنمـا نقصد ان الطابـع الغالب يتسمُ بلونٍ من ألوان هـذه المقاومة المتعاقبة الحلقات .

المقاومة السلبية :

ما ان أقام عبيدالله الشيعي دولته بقوة السلاح ، حتى أحس انالأرض تميدُ تحتهذه الدولة. ذلك ان مقاطعة سلبية وإنكاراً صامتاً جابهه بـه أهل افريقية [1] كما قاطعوا « قُضاتها وعمالها ورفض من استطاع منهم دفع المال » [2] .

ومن الصوفية من اختار الاختفاء عن وجوه بني عبيد ، فهذا أبو محمدبن يونس بن محمد الورداني يقوللأهله عند دخول العبيديين للقيروان: «اختاروا إما أن أهرب من افريقية فلا تروني أبداً ، أو تتركوني أرعى البقر ! فشقّ عليهم فراقه واختاروا بقـاءه يرعى البقر ، وكان يخرج إلى الصحراء راعياً يقرأ القرآن ، فإذا رآه أحدهم اقبل يجري قُدام البقر كما تفعل الرعاة » [3] .

ومن الناس من لم يهرب – ولم يساجل ولم يحارب لضعف – وإنمـــا اكتفى بالدعاء على الشيعة ، ومن الأدعية المستجابة التي

(١ و٢) مقدمة رياض النفوس لمؤنس ص ١٧ .

(٣) طبقات علماء افريقية مقدمة المحققين ص ١٨ (عن المدارك ١٦/٢ أ وب) .

قوّضت معالم البلاد وحضارتها دعـاء الواعظ عبد الصمد في الأرض الحرام – على المعز بن باديس الذي دسّ لابن الواعظ من قتله لِما رأى من ميل القلوب إليه و كثرة اتباعه [1] .

وقد أحسّ الشيعة بأن أخطر المخاطر عليهم هـذه النخبة المثقفة من الصوفية لِما رأوا من هفو القلوب إليهم وانقياد الناس لنصحهم وتوجيههم ، فواجهوهم بالقتل والتعذيب ، فهـذا أبو جعفر المعافري (ت ٣٠١ هـ) الذي كان فقيهاً صالحاً عابـداً من خيار المسلمين [2] أمر بقتله عبد الله الشيعي تحت اقدام السودان و«ذلك من أجل جهاده على دين الله تعالى و بُغضهِ لبني عبيد»[3].

وهذا القاضي الزاهد أبو القاسم الطرزي (ت ٣١٧هـ) يضربه القاضي المروذي بالسياط عند الجامع بغضاً في أهل السنة وعداوة لعلماء المسلمين [4] .

وهـذا أبو بكر محمد اللباد (ت ٣٣٣ هـ) سُجِنَ مِن قِبل أشياعِ بني عبيد ثم أُطلِقَ ومُنعَ الفتوى والاستماعَ واجـتماع الطلبة عليه حتى توفي [5] وقد رُثي بقصيدة منها :

---

(١) المعالم ٣ : ٢٣٧ .

(٢) المعالم ٢ : ١٩٧ .

(٣) المعالم ٢ : ١٩٨ .

(٤) المعالم ٣ : ٩ .

(٥) المعالم ٢ : ٢٤ .

كم محنةٍ طرقته في الإله فــلم
يحزَنْ لذلك ، إذ في ربّه امتُحِنا [1]

وهنا نُلاحظ عملية عَزله عن طلابه لإحساس الشيعةِ بأثره الغلاّب فيهم ، وبما يبثهم من روح المقاومة .

وهــذا أبو جعفر أحمد الهواري البربري (٢٣٥ – ٣١٧ هـ) يسجُنه عبيد الله الشيعي لمــا أحسّ بخطر ثورة مخلد بن كيداد وانضمام الناس له ، ذلك ان لأبي جعفر كلمة مسموعة عند الجماهير [2] .

ونُلاحِظ أن بعض الصوفية اضطرّ إلى المقاومة السلبية اضطراراً ، فهذا ابن الصواف (ت ٣٣٥ هـ) اعتزم الخروج على بني عبيد ، لكنه لم يخرج لضعفه بسبب كبر سنه فاستبدل بالخروج بثّ الوعي في طلبتِه وأصحابه ، فكان يخرج إلى مقبرة باب سلم فيستتر بحائط ويقرأ على أصحابه هناك [3] . ذلك أن بني عبيد «منعوا من بثّ العلم وسجنوا العلماء في دورهم» [4]. وقد تقدمت

---

(١) المعالم ٣ : ٣١ .
(٢) المعالم ٣ : ٣ .
(٣) بث الوعي ونشر التعليم مسلك لجأ إليه الإمام عبده في القرن التاسع عشر عندما انهزمت الدعوة السياسية والعسكرية التي دعا إليها مع استاذه المجاهد جمال الدين الافغاني ، وقد اثبتت الأحداث جدوى التعليم فكانت جل مشاريع النهضة يقف وراءها أو على رأسها تلميذ من تلاميذ الإمام .
(٤) المعالم ٣ : ٤٧ .

الإشارة إلى لون آخر من المقاومة السلبية عند أبي الحسن علي الدباغ (٣٥٩ ﻫ) وهو الترخيص في الآذان ظاهرياً بزيادة حي على خير العمل كي يحفظ اجتماع المسلمين في مساجدهم [١]. ومن ذلك أيضاً استغلال الأحداث الحساسة للتشهير بالشيعة وإثارة العامة عليهم، فهذا باديس (ابن منصور تولى من ٣٨٦ – ٤٠٦ ﻫ) يحاول الانتقام من المهدية ويأمر بقتل كل بالغ فيها، لأن العامة قتلوا نصرانياً – هو ابن أخ حاضنة باديس – افتضّ بكرة صبية شريفة بالمهدية، وإذا بأبي الحسن القابسي يدعو على قائد حملة الانتقام، وتشاء الصدف أن يموت القائد فيرتاع باديس ويزداد الناس حباً للقابسي وكراهية للشيعة، وحاول باديس استرضاء القابسي بدون جدوى فقد أملى رسالة شهّر فيها بباديس لقيامه بدم كافر افتض صبية من سلالة المصطفى (ص) إذ لو انطبقت السموات والأرض من أجل هذا الفعل لكان قليلاً – حسب تعبير القابسي نفسه [٢].

المقاومة الجدلية:

وإلى جانب هذه المجابهة السلبية فقد وجد المتصوفة – وهم علماء المالكية أنفسهم أمام تحدٍّ فقهي وعقدي صارمٍ، فكانت

---

(١) انظر ص : ٧.

(٢) المعالم ٣ : ١٧٥ – ١٧٦.

مساجلات [1] الفاطميين أمام الوعي المالكي [2] وقد لمعت وجوه لها باع طويل في الجدل منهم ابو اسحاق بن البرذون الذي تقدم الحديث عن كيفية قتله فقد كان « فقيهاً بارعاً في العلم يذهب مذهب النظر » ، ولم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين منه [3] .

وكذلك سعيد بن الحداد (ت٣٠٢ ﻫ) فقد ردّت له منافحته عن السنة أمام عبيدالله الشيعي ، اعتباره عند الناس . إذ كان قد انتبذ لما تحول إلى المذهب الشافعي وهاجم المالكية حتى سمّي المدوّنة بالمدودة .

وقد اثبتت مساجلاته شجاعة فائقة مع قوّة عارضة وسرعة بديهة وذكاء وقاد جعل منه بطلاً من أبطال المقاومة ، وقد قال فيه أبو عبد الرحمان السلمي في تاريخ الصوفية « كان فقيهاً صالحاً فصيحاً متعبّداً أو أحد رجال زمانه في المناظرة والرّد على الفرق » [٤و٥] .

وقال ابن حارث : « كان يردّ على أهل البدع المخالفين للسنة

(١) مناظرات وثائقية خطيرة توجت بهزيمة الفاطميين أمام الوعي المالكي.

(٢) مقدمة رياض النفوس للمالكي ص ١٧ .

(٣) المعالم ٢ : ١٧٧ .

(٤) المعالم ٢ : ٢٠٢ .

(٥) المعالم ٢ : ٢٠٣ .

وله في ذلك مقامات مشهورة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة» والملاحظ أنه لما اشتدت وطأة الشيعة على الناس لجأووا إلى أبي سعيد وسألوه التقية ، فأبى وقال : « قد أربيتُ على التسعين ومالي في العيش من حاجة وقتيل الخوارج خير قتيل ، ولا بدّ لي من المناظرة والمناضلة على الدين، وان أبلغ في ذلك عذراً»[1].

هكذا ينحت الإسلام والايمان النفوس ويصنع الرجال الذين يحفظون للوطن عزّه وللحياة تجدّدها وللناس أمنهم وللإسلام حيويته وصولته . فأين نحن اليوم من مثل هذا التعلم الأصيل السامي ؟

ومن مناظرة ابن الحداد لابن عبيدالله الشيعي قول هذا له : أنتم تُفضلون على الخمسة أصحاب الكساء[2] غيرهم – يعني أبا بكر – ؟

فقال ابن الحداد : أيهما أفضل خمسة سادسهم جبريل ، أو اثنين ثالثهما الله ؟ فبهت الشيعي .

وذكر التجيبي قال : سمعت أبا محمد بن التبان يقول : روي انه لما اجتمع مع الشيعي برقادة فيقصر بني الأغلب قرأ الشيعي:

(١) كان يتألق في لباسه حتى ان كسوته تقوم بعشرين ديناراً .

(٢) علي – فاطمة – الحسن – الحسين – محمد رسول الله (ص) .

« فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين »[1].

وتلا عثمان :

« وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال »[2]. وقال المالكي: قال ابو بكر ابن اللباد : ووجه له مرة عبيد الله فذكر له حديث : من كنت مولاه فعلي مولاه وقال : ما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا ؟

فقال ابن الحداد : لم يُرد الله ولاية رقّ ، وإنما أراد ولاية الدين ! وتلا قوله تعالى : « ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »[3].

فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي ، وعلي لم يكن نبيّاً ، إنما كان وزيراً للنبي .

ومن مناظراته أيضاً ان عبيدالله قال له يوماً : ان محمداً ليس بخاتم النبيين .

---

(١) القصص : ٥٨ .
(٢) ابراهيم : ٤٥ .
(٣) آل عمران : ٧٩ .

قال : وأين ذلك ؟

قال في قوله تعالى : « ولكن رسول الله وخـــاتم النبيين » وخاتم النبيين غير رسول .

قال ابن الحداد : هـذه الواو ليست من واوات الابتداء ، وإنما هي من واوات العطف كقوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » فهل أحدٌ يوصف بهذه الصفات غير الله ؟

هذه بعض مناظرات هذا العالم الزاهد الكبير التي دفع بهـا شبهات الشيعة فأفحمهم وأزعجهم بهـا حتى كانت وفاته بشرى للشيعي ، فقد خرج البريد سحراً يبشر أمير بني عبيد .

أما بالنسبة للجانب السني فهي كارثة اهتزت لهـــا اعطاف البلاد ، وقد رثي بأشعارٍ [1] تقطر ألمـاً وتنضحُ إشادةً بمفاخره ومواقفه المشرّفة .

إلا أن أمثال الحداد لا تعدمهم البلاد ، فهذا ابو محمد عبدالله ابن التبان (ت ٣٧١ هـ) كان في زمانه مثل أبي عثمان الحـداد [2] فداء وقوة خارقة .

طلب صاحبُ القيروان عبد الله المعروف بالمختال العلمـــاء ليشرفهم ، فندب ابن التبان نفسه نائباً عنهم وقـال لهم : « أنا

(١) المعالم ٢ : ٢١٥ .
(٢) المعالم ٣ : ١١٣ .

أمضي إليه أبيع روحي من الله دونكم لأنـه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن» [1] . وقال : انه قال لعبدالله هذا لما دخل عليه : « جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبال أقلهم يقيناً أنا »[2].

وقد سئل عن أبي بكر وعلي: أيهما أفضل ؟ فقال: أبو بكر فقـال صاحب القيروان الشيعي : أأبو بكر أفضل من خمسة سادسهم جبريل ؟

فقال ابن التبان : أيكون علي أفضل من اثنين ثالثهما الله[3]؟

وسئل عن فاطمة وعائشة أيهما أفضل ؟ فقـال : عائشة ، فذكر بأن فاطمة أبوها النبي وأمها خديجة وزوجها علي وولداها الحسن والحسين. فقال ابن التبان: ان امرأة لا تتزوج أحداً عند موت زوجها أفضل من امرأة تستطيع الزواج من عشرين بعده.

ثم لخص لهذا الشيعي موقفه الصلب بقوله : « لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك » [4] .

فالعلماء يعتبرون التحول عن المذهب المالكي عقوقاً كما يعدون التشيع شركاً [5] والشيعة مغتصبين يجب تحرير الأرض منهم ناهيك ان ابا الحسن القابسي (ت ٤٠٣ هـ) لما بعث إليه عبيد الله

(١و٢) المعالم ٣ : ١١٣ .
(٣) المعالم ٣ : ١١٤ .
(٤) المعالم ٣ : ١١٥ .
(٥) مقدمة رياض النفوس لمؤنس ص ٢٣ .

لم يجبه حتى قال له أخوه أبو سعيد : يا أخي اني أخاف منه على نفسي إن لم تجبه ، فسار الشيخ أبو الحسن فلما دخل عليه أخذ يعلّم موضع قدميه من الأرض، فلما دخل عليه لم يسلم وجلس، فسئل عن الحرف الذي أشكل عليهم فلم يجب بشيء ، فقرأ القارىء ذلك الحرف مرة بعد أخرى وهو ساكت حتى قرأه بالصواب فأشار إليه أي نعم ؟ ثم خرج من عنده ، وما أوفاه بالكلمة تورعاً ، فلما رجع أخذ يتبع آثار قدميه من السير فيضع فيها قدميه لئلا يكثر الخطا في الأرض المغصوبة [١] .

وازاء هذا الاصرار على المقاومة ، وهذه القوة في المواجهة ، كان الشيعيون يحاولون إبعادهم عن البلاد إلى جانب منعهم من الاتصال بالجمهور – وما يزال الابعاد وسيلة من وسائل المستبدين لمقاومة تيارات التحرر حتى اليوم .

فهذا أبو بكر أحمد الخولاني (ت ٤٣٢ ه) يحاول المعز بن باديس إبعاده لخلوص عبادته وحسن اجتهاده وصحة تفقهه وقوة شوكته بتكليفه برسالة إلى صقلية ويتفطن الخولاني لمرمى المعز ، فيقول له : والله ان اقلامنا لامضى عند الله من رماحك [٢] .

وقد أعيت المعز الحيلُ للايقاع بين العلماء ، من ذلك أنه دس إلى الخولاني هذا من كتب سؤالاً نصه : « ما يقول الفقيه في هذا

---

(١) المعالم ٣ : ١٧٤ .
(٢) « ٣ : ٢٠٩ .

الطرز التي فيها أسماء بني عبيد مثل الظاهر والحاكم وغيرهما مما يُلبس أيصلي فيها » ؟ فكتب جواباً : هـذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفـــة . ونفس السؤال دسه على أبي عمران الفاسي (ت ٤٣٠ هـ) فأجاب : إنما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك .

واستدعى المعز الشيخين لاستنطاقهما حول جوابيهما المؤلمين له، وذكرهما بما قام به من قتل المشارقة ، وغير ذلك من الأعمال الممالئة لعواطف الشعب السني ، إلا أن ذلك لم يغيّر من موقفهما وحضّاه على أن يُجهز على البقية الباقية من آثار العبيديين بخفض بنودهم وشعاراتهم ومحو أسمائهم من السكة [1] .

مقاطعة الممالئين للسلطان :

وفي كل عصر ومصر نجـــد الذين تميد تحت أقدامهم دعائم الصمود أمـــام إغراء السلطان الذي يوليهم الامتياز والرخاء والعطاء ، إلا أن رضا الدخيل عنهم يكلفهم سمعتهم ومكانتهم بين أبناء قومهم ، فهـــذا ابو القاسم خلف ابن البراذعي لم تحصل له رئاسة بالقيروان كان مبغضاً لأصحابه لصحبته سلطانها ، فكان مريض القلب لديهـــم ثقيل المكان عليهم ، ويقال ان فقهاء القيروان [2] افتوا برفض كتبه وترك قراءتها ، ذلك أنه كما يقول

---

(١) المعالم ٣ : ٢٠٩ .
(٢) » ٣ : ١٨٦ .

المالكي : الف كتاباً في تصحيح نسب بني عبيد وانه كانت تأتيه هداياهم [1] فقد نبذه قومه وحرموه حلاوة معايشة بني قومه .

ومقاطعة المالئين للسلطان من أخطر ألوان المقاومة ، فهي تنتهي إلى عزل السلطان وتجريده من عيونـــه وأنصاره من أصحاب البلاد .

وقـــد سلكوا مع الناسك أبي اسحاق ابراهيم المعافري (ت ٤٤٣ هـ) نفس المسلك ، فقد بدّعوه وتبرأوا منه لأنه جعل العبيديين قسمين أحدهما كافر مباح الدم والقسم الآخر هم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابـة لا يلزمهم القتل ولا يبطل نـكاحهم [2] .

فالفقهاء يرومون سدّ كل باب يمكن أن ينفذ منه العبيديون إلى العامة فقد جعلوا الداخل في دعوتهم كافر حتى وان لم يقـل الكفر [3] .

وخلاصة القول فيهذا اللون من المقاومة هو ان علماء افريقية وزهادها آمنوا بشرف الحرف فلم ينحرفوا به عن موضعه وهو مقاومة الضلال حيثما كان : سلاحاً يرهقون به الظالم المغتصب ويقاومون به الممالىء للظلم والجور .

---

(١) المعالم ٣ : ١٨٨ .
(٢) » ٣ : ٢٢٠ .
(٣) » ٣ : ٢٢١ .

المقاومة المسلحة :

وإذا فرضت الظروف الصعبة على هؤلاء الزهـاد ألواناً من المقاومة تتمثل في الحروب أمام وجه الظلم أو كراهية السلطان والدعاء عليه – وهو أضعف الإيمان – أو مساجلته أو مقاومة ممالئيه ، فإنهم دوماً على يقظة لاستغلال كل فرصة تحين لامتشاق السلاح والانقضاض على عدوهم وخضد شوكته .

فهذا جبلة بن حمودة (٢١٦ – ٢٩٧ هـ) مـا ان حل عبد الله الشيعي بأفريقية ونزل رقـادة حتى ترك سكنى الرباط ونزل القيروان فكلّم في ذلـك فقال : كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر [١] ، والآن حل هذا العدو ساحتنا ، وهو أشد علينا من ذلك ، وقد أنكر على من خرج من القيروان إلى الثغور وقال : جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك [٢] .

وإن كره جبلة للشيعي جعله يدعو على اولئك الذين خرجوا من أهل القيروان للقاء الشيعي مداراةً له فقال : « اللهم لا تسلم من خرج يسلم » [٣] وكان يخرج كل صباح إلى طريق القيروان من ناحية رقادة ومعه سيفه وترسه ورمحه وقوسه وسهامه ويجلس

---

(١) يقصد به الرومان والروم .

(٢) معالم الايمـان ٢ : ١٨٥ وانظر مقدمة طبقات افريقية ص ١٧ تراجم أغلبية ص ٢٨٤ .

(٣) تراجم أغلبية ص ٢٨٣ .

محاذياً لرقادة . وكان يقول : أحرس عورات المسلمين ، فـــإذا رأيت منهم شيئاً حرّكت المسلمين عليهم [١] .

وجبلّة هـذا اعتبر نفسه وأهل افريقية من المساجين فكان يصلي الجمعة ظهراً أربع ركعات بأذان واقامة ، وقد عوتب في ذلك فقال : إننا نطبق حكم مالك في المسجونين .

وقد قال يوماً لصاحب المحرس حين قال له : ان الأمير يقول لك كرر الإقامة وسلم اثنتين ولا تقنت في الصبح: ُمر يا اصُ . . لا تعلّمنا أمر ديننا [٢] . وبهـــذه الجرأة وهذا الوعي كانوا يقاومون الشيعة .

ومن الذين خرجوا مبكراً على الشيعة أبو القـاسم الحسن بن مفرح (ت ٣٠٩ هـ) « وكان من العباد البدلاء » [٣] مات شهيداً قتله عبيدالله المهدي ، وكان سبب قتله أنه رأى أموراً لا يحـل المقامُ عليها لمسلم فخرج مع جماعة على عبيدالله فأخذ وقتل [٤] .

ثم كان ذلك الهبوب الشامل حين عزم العلماء والزهاد عزمة الرجل الواحد على قتال العدو وضم جهودهم إلى أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي تحقيقاً لأملهم المنشود وإخلاصاً له ، وقــد آلى

---

(١) تراجم أغلبية ص ٢٨٤ .
(٢) المعالم ٢ : ١٨٩ .
(٣) » ٢ : ٢٤٣ .
(٤) » ٢ : ٢٤٤ .

بعضهم على نفسه « ان لا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد »[1] .

وكانوا قد هيأوا النفوس لذلك فأصدروا الأحكام الشرعية بوجوب القتال ، فهذا أبو الفضل عباس المهدي (ت ٣٣٣ هـ) رأى أن الخروج مع أبي يزيد وقطع دولة بني عبيد فرض[2] .

وهذا أبو العرب صاحب كتاب طبقات علماء افريقية يحسم خلاف الناس حول الخروج على بني عبيد فيقول: « حدثني عيسى ابن مسكين عن محمد بن عبد الله الجرجاني باسناده إلى النبي انه قال : يكون آخر الزمان قوم يقال لهم الرافضة ، فإذا أدركتموهم فقاتلوهم فإنهم كفار »[3] .

فهم لا يترددون بالاستشهاد حتى بالموضوع من الحديث إذا كان ذلك يخدم قضيتهم، وهكذا تمت التهيئة النفسية واجتمعت قلوب الناس على الخروج، وقد تحولت المساجد إلى مواطن دعاية واعداد وتجميع الكلمة ، ونجد في ترجمة ربيع القطان حديثاً مفصلاً عن يوم الخروج وما انعقدت فيه بنود ، وكانت تحمل شعارات تترجم عزمهم على طرد الشيعي وعلى التصميم على القتال إلى آخر قطرة من دمائهم .

---

(١) هو ربيع القطان – المعالم ٣ : ٣٦ .

(٢) المعالم ٣ : ٣٤ .

(٣) « ٣ : ٤٤ .

وكان العبّادُ والعلماء هم رافعو تلك الألوية ، وقد أخذت الفرحةُ والأريحية ربيع القطان لما رأى ألوية الجهاد معقودة وصفوف المجاهدين متراصة مدججة بالسلاح ، فقال : « الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك يا رب » [1] ، وقد تأثر لذلك حتى بكى .

وقد خرج في معركة سنة ٣٣٣ عدد جمّ من الفقهاء والزهاد منهم : أبو الفضل الممسي وهو « ممن خرج لقتال بني عبيد مع أهل القيروان لِما كان يعتقد من كفرهم » [2]. كما يقول الدبّاغ وقد أشرنا إلى إفتائه بوجوب قتال الشيعة ، وقد مات قتيلاً شهيداً وهو على حالته من الاجتهاد [3] .

وكذلك من أعلام الخارجين أبو العرب الذي تقدمت الإشارة إلى تحريضه الناس على الخروج، وقد نجا من الموت بأعجوبة ضمن من نجا من الجنود [4] .

وكذلك ابو اسحاق ابراهيم السبائي (ت ٣٥٦ هـ) « وكان ممن خرج عليهم بالوادي المالح وعصمه الله منهم [5] .

---

(١) المعالم ٣ : ٤٠ .
(٢) « ٣ : ٣٤ .
(٣) الديباج المذهب ص ٢١٧ .
(٤) مقدمة طبقات علماء افريقية ص ٢٠ .
(٥) المعالم ٣ : ٨٨ .

والطريف في أمر هذا الزاهد أنه لم يُلق سلاحه ، وإنما بقي شاهراً له معتداً به لقتال بني عبيد مع كل بر وفاجر من المسلمين، وكان قد عاهد الله على ألا يلقى أعداءه إلا محارباً ، وقد كفّرهم وعلّم الناس الجرأة عليهم حتى تناكر الكبير والصغير [١] .

والذي يثبت ان اتجاه العلماء والزهاد يخالفُ مرمى يزيد بن كيداد، هو ان هذا الأخير تفطن إلى ان انتصار الفقهاء سيكون كارثة بالنسبة إليه ، إذ أن الشعب يعتبرهم قادته وموجهيه وهم يتفاعلون معهم ويهتدون بهديهم ثقة منهم في انهم الهداة والحماة . لكل هـذا تآمر عليهم صاحب الحمار وأوقعهم في شرك الهزيمة التي راح ضحيتها عدد كبير ، إذا ما أضيف إلى الضحايا القدامى بلغ الآلاف ، فقـد روى أبو الحسن القابسي عن شيوخه الذين أدركهم ان الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيدالله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد وعالم ورجل صالح . ولذلك قال سهل الوراق :

وأحلّ دارَ البحر في أغلالِه
من كان ذا تقوى وذا صلوات [٢]

وان الدم لا يجلب إلا الدم كما تقول لغة السياسة اليوم ، فإن هذه الهزيمة وهذا الغدر لم يُفتّا في عضد جمهور المالكية ، وإنما

---

(١) المعالم ٣ : ٩٠ – ٩١ .
(٢) » ٣ : ٤١ .

صعّدا من درجة حرارة حقد المؤمنين فأخذوا يتأهبون لأول سانحة تسنح لهم للانتقام وإشفاء الغليل .

وكان الصنهاجيون أثر توليهم الحكم بعد خروج المعز إلى مصر سنة ٣٦١ هـ، قد عجزوا عن مواصلة مسلك العداء للشعب المالكي فما لؤوه ومالوا عن الشيعة بعض الميل ، فاستغل الشعب ذلك ، وما ان تولى المعز بن باديس سنة ٤٠٧ هـ حتى « قتلت العامة الرافضة بالقيروان أقبح قتل وحرقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم .. ولجأت الرافضة إلى مساجد المهدية فقتلوا فيها [1]. فرعب المعز لهول هذا الصنيع ودبّر قتل زعيم أهل السنّة أبي علي حسن البلوي (ت ٤٠٧ هـ) مما أثار ثائرة أهل القيروان فانتقموا لعالمهم » ، وقد حاول عامل القيروان ارضاءهم فقتل رجلين من جنده بدعوى أنهما هما القاتلان ، إلا أن ذلك لم يخمد النار ، وإنما بقيت روح الانتقام تنمو في النفوس وتظهر في كل مناسبة ملائمة .

فهذا ابو عبد الله محمد الكوفي لما أمر المعز بن باديس بلعنة عبيد الله في الخُطبِ وذلك سنة ٤٤٠ هـ يستغل ذلك ليترجم عما يعتمل في نفسه من الحقد عليهم ، فيقول في خطبة عيد الفطر تلك السنّة : « اللهم والعن الفسقة الكفار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشياطين المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك المتبعين غير

---

(١) المعالم ٣ : ١٩٢ .

سبيلك والمبدلين لكتابك »[1] .

إلا أن هذا المسلك من الصنهاجيين قُوبِلَ بالانتقام من أولي نعمتهم الفاطميين في مصر ، فأرسلوا عليهم جيشاً عرمرماً من اعراب الصعيد ، فكانوا كالاعصار لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه فخلفوا الخراب والدمـار وانقلبت صفحة من صفحات العلماء الزاخرة فخفت صوت العـلم واختنقت روح النظام وراحت تتلمس طريقها في ظلام الفوضى إلى أن منّ الله على البلاد والعباد « بظهور دولة الموحدين فوضحت بهـا معالم الدين وسُبل الحق ورسوم الشرع ، فظهر بظهورها العلماء والصلحاء وذلـك سنة الأخماس ٥٥٥ هـ »[2] .

---

(١) المعالم ٣ : ٢٥٢ .

(٢) نفس المصدر .

أسس الدولة الموحدية (٥٥٥ - ٦٢٦ هـ/ ١١٦٠ - ١١٢٩ م) محمد ابن تومرت تلميذ أبي حامد الغزالي،وقد قامت قبل الموحدية دولة المرابطين (٤٣٤ - ٥٤٢ هـ/ ١٠٤٢ - ١١٤٧ م) على يد الفقيه الصالح عبد الله بن ياسين المصمودي تلميذ أبي عمران الفاسي (الزاهـد الأفريقي الذي كانت له غيرة على الدين والملة ومعرفة بأصول الدين ، وقيل أنه ما رؤي ضاحكاً قط إلا مرة واحدة توفي سنة ٤٣٠ ، انظر ص ١٤) .

(المعالم ٣ : ١٩٩ - ٢٠٢)

وسموا بالمرابطين لاجتماعهم بوادي النيجر بالسنغال في رباط لعبـادة الله وقراءة القرآن .

خاتمـة :

وهكذا نكون قـد رسمنا لوحة من لوحات النضال المالـكي السني التي رفع لواءها صوفية المغرب ، فكانوا يمثلون قلب الأمة النابض وساعدها الحديـد ، فهم قاوموا الضلال بالقلب والقول والعمل ، فمنهم من هاجر وهرب ، ومنهم من تصدى بالكلمة ومنهم من قـام بتوعية الجماهير ومنهم من امتشق السلاح ، فقضى قرير العين مغتبطاً بما قدم من التضحيات الجسام فحققوا بذلك مبدأ من أروع المبادىء الإسلامية وهو المزج بين المبدأ والعمل ، فكانوا أصدق ممثل للإسلام في أفريقية ، وقد أبقوا بصماتهم على كل معالم الحياة فيها .

وإنما نحن اليوم بمالكيتنا وعروبتنا وإسلامنا ندين لما قدموا من التضحيات ونعيش تحت ما غرسوا من الظلال الوارفة .

العناصر

١ – مقدمة

٢ – صلة التصوف بالسنة

٣ – الظروف التي نشأ فيها التصوف المغربي

٤ – طابع التصوف المغربي :

أ – التصاق حياة المتصوفة بحياة العامة

ب – المتصوفة ممثلو المالكية

جـ – بعد التصوف المغربي عن الرهبة

د – فلسفتهم هي الحفاظ على سلامة الدين .

٥ – ضلال الشيعة في المغرب

٦ – مقاومة المتصوفة للشيعة والتشيّع

المقاومة السلبية :

(ابو محمد الورداني – عبد الصمد – ابوجعفر المعافري ٣٠١، الطرزي٣١٧، اللباد٣٣٣، الهواري البربري٣١٧، ابن الصواف٣٣٥،

الدباغ ٣٥٩ ابو الحسن القابسي ٤٠٣) .

المقاومة الجدلية :

(ابن البرذون ٢٩٩، سعيد ابن الحداد ٣٠٢، ابن التبان ٣٧١، ابو الحسن القابسي ٤٠٣، الخولاني ٤٣٢، ابو عمران الفاسي ٤٣٠).

مقاطعة الممالئين للشيعة :

(ابو القاسم خلف البراذعي – ابو اسحاق المعافري ٤٤٣).

المقاومة المسلحة :

(جبلة ٢٩٧، ابن مفرج ٣٠٩، الممسي ٣٣٣، ابو العرب ٣٣٣، القطان ٣٣٣، أو ٣٣٤ السبائي ٣٥٦، البلوي ٤٠٧ الكوفي .

٧ – الخاتمة :

المـراجـع

١ – معالم الإيمان في معرفة أهـل القيروان : تأليف عبد الرحمان بن محمد بن عبدالله الأنصاري المعروف بالدباغ .

ذيّله بإفادات كثيرة ابن ناجي ، وطبع بالمطبعة العربية التونسية سنة ١٣٢٠ .

٢ – رياض النفوس في طبقات علمـاء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم . تأليف أبي بكر عبدالله بن أبي عبدالله المالكي مات سنة ٦٣٠ ، قام على نشره حسن مؤنس ج ١ من الفتح العربي إلى آخر سنة ٣٠٠ هـ/ط١ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥١.

٣ – طبقات علماء أفريقية وتونس .

ابو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني المتوفى ٣٣٣/٩٤٤.
تقديم وتحقيق علي الشابي (الجامعة التونسية) .
نعيم حسن الباقي (الجامعة السورية) .

الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ .

٤ – الديباج المذهب في معرفة أعيان علمـاء المذهب تأليف الإمام الجليل العلامة القاضي القضاة برهانالدين ابراهيم بن علي بن محمد بن فرعون البعسري المدني المالـكي .

ط عباس بن عبدالسلام بن سقرون بالضحامين بمصر ط١٣٥٤

٥ – تراجيم أغلبية (من مدارك القاضي عياض) محمد الطالبي – الجامعة التونسية ١٩٥٨ .

٦ – الصلة بين التصوف والتشيّع – تأليف كامل مصطفى الشيبي .

ط ٢ دار المعارف بمصر .